تقـديم

أ.د. حامد عمار

ترحيب من السلسلة

نحن مع الكتاب الثالث فى سلسلة (آفاق تربوية متجددة) للصديق المريد الأستاذ الدكتور/ حسن شحاتة، رئيس قسم المناهـج وطـرق التدريـس بكليـة التربية ـ جامعة عين شمس، وعضو المجالس القومية المتخصصة، ومدير مركز تطوير التعليم الجامعى الأسبق، ونرجو ألا تنسحب عليه مقولة المأثورة الشعبية (التالتة تابتة)؛ أى انقطاع إسهامه فى هذه السلسلة بعد الكتاب الثالث، مع إدراكنا لفيض مؤلفاته فى تغذية المكتبة العربية، وبخاصة فى أبواب هذه السلسلة التى نعتز بها.

ويتضاعف اعتزازنا بها حين يتولى رعايتها والحرص على نموها وازدهارها الرجل الفاضل والأخ الكريم الأستاذ/ محمد رشاد، رئيس مجلس الإدارة للدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع مع صحبه وفريق عمله المتفانى فى إخراج هذه السلسلة.

وجميعنا على العهد بمقاصد هذه السلسلة ولحنها المميز "بنشر الجديد والمتجدد فى أدبيات التربية"؛ حيث تستهدف إثراء الفكر وتجديد المنظومة التعليمية، وتحريك ما أصاب العلوم التربوية والنفسية من أجواء راكدة، واجترار فى الفكر والممارسة.

الحوار التقليدى

لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أو من قبيل مجرد الإضافة أن ترحب السلسلة بهذا الكتاب الذى يثير القارئ عنوانه: (التعليم.. دعوة إلى حوار فى الوطن

العربى). والدعوة إلى الحوار ليست مجرد عملية تجميل أو حتى تزييف أو تسويق لأفكار مسبقة، سواء من قِبَل أطراف فنية تتمسك بها، أو من جماعات مهنية ارتضتها خبرتها فى الممارسة الطويلة فاطمأنت إلى مصداقيتها، أو من تعبئة إيديولوجية رسمية تحرص على برمجة العقول بتوجهاتها.

إنها ليست كذلك قطعا، وإنما هى دعوة ليست من قبيل ذلك النمط الذى تتبعه مجريات المؤتمرات والندوات التى تعقدها الجامعات أو الوزارات. وفيها كما نعلم يعرض الباحث دراسته، يعقبها فتح الباب للأسئلة حول ما ورد فيها من طرف جمهور السامعين، والتى مع الأسف لا يتسع وقتها دائما إلا لدقائق معدودات على نصف أصابع اليد الواحدة. وبعد كل سؤال، أو بعد تجميع الأسئلة، يقوم صاحب الدراسة بالإجابة عن الأسئلة المثارة، أو على أهمها بالنسبة له.

وإذا أطلقنا على ذلك "حوارا" فهو من قبيل أضعف الإيمان، إذ إنه فى تقديرى الشخصى لمفهوم الحوار ومقاصده لا يتعدى أسلوب الفتيا فى المسائل الفقهية، كأن يقول المستفسر للباحث: ما قولكم دام فضلكم؟ فيرد الأخير بما تيسر له من علم ووقت بصحيح الفتيا والرأى فيما سئل فيه. وعند ذلك ينفض السامر لشرب قدح من الشاى أو القهوة أو المرطبات.

أقول إن هذا النمط المتبع فى ملتقياتنا العلمية هو أضعف الإيمان فى الحوار؛ لأنه إنما يتم فى اتجاه واحد، إذ إن التعليق على السؤال ينتهى عند إجابة الأستاذ الباحث فوق المنصة، ولا ندرى هل اقتنع السائل بما قُدم له من جواب أو أن الإجابة غير مقنعة لديه، أو أنه لا يزال متمسكا بالقضية التى أثارها.

الحوار من منظورنا

الحوار الذى ننشده ـ والذى لا يزال المؤلف يدعو إليه ـ إنما هو فلسفة ومنهج للتفكير والتدبر. هو فلسفة تقوم على أنه ليس هناك من يمتلك الحقيقة المطلقة والإجابة القاطعة فى المسائل الاجتماعية والإنسانية، وأنه ليس هناك جَهول جهلا

مطلقا ينتظر الإجابة الكاملة والمعرفة الرشيدة من فوق، وإنما تتولد المعرفة من حوار جدلى، يتواصل بين مختلف الأطراف، أخذا وعطاء، بحيث ينتهى إلى معاناة الاستقرار على الخلاف أو الاحتمال أو الوفاق بين ما يطرح من تيارات الفكر والرؤى. وهذه هى قيمة الحوار الجدلى الحقيقى كفلسفة فى منظومة الحياة الديمقراطية التى تستند إلى حرية الرأى، وإلى عدم الخوف من ممارسة هذه الحرية، واختراق ثقافة الصمت.

وفى هذا الإطار الديمقراطى لا يوجد شخص أو جماعة تنصب نفسها على أنها هى التى تفكر لنا، أو هى التى تتكلم نيابة عنا، أو هى التى ترى بعينيها دون عينينا، كما لو أنه ليس لنا من موقف إلا أن نستخدم أذنينا لنستمع إليها، طاعة وإذعانا لما تقوله وتراه وتعبّر عنه هى وحدها.

والحوار منهج للفكر والعمل يتم على مستوى العلاقة الأفقية بين الجماعة، وليس على مستوى العلاقة الرأسية. وينساب فى خطوط متواصلة لا تنقطع فى أقل الحدود الممكنة، ينطلق منها تنوع الفكر، وتعدد الخبرة، واختلاف السياقات الاجتماعية والتاريخية ، والاقتراب، ثم الإمساك بالواقع وحركته وبمدى استشرافه للمصائر والبدائل المستقبلية. وهذا النهج من الحوار مغاير تماما لأسلوب الحوار الرأسى الذى نصطنعه فى مؤتمراتنا وتعليمنا، كما سبقت الإشارة.

ونكتفى بهذه القيمة تأكيدا لفلسفة الحوار ومنهجه فى تطوير المنظومة التعليمية، وغيرها من المنظومات المجتمعية فى الوطن العربى، والتى لا تزال ترزح تحت وطأة البعد الأحادى والتوجهات الفوقية، وما قد يترتب عليها من تعثر فى مساعى التغيير الحقيقى، نتيجة للحوار الشكلى التجميلى أو الزائف أو المراوغ فى كثير من عمليات النقاش.

معالم الكتاب

ننتقل إلى توصيف مضمون هذا الكتاب. لقد ذكرتنى مطالعته بكتاب (القاموس المحيط)، من قواميس اللغة العربية، سواء كانت إحاطة مؤلفنا شأن القاموس فى الشمول، أو شأن المحيط الزاخر العميق المتدفق بأمواج موضوعاته.

والمتصفح لمحتوياته يلتقى معها بمختلف أبعاد المنظومة التعليمية فى إطاراتها العامة أو فى مقاطعها ومفرداتها الخاصة. ويتضح ذلك من عناوين فصوله الأربعة: تعليمنا يصنع مستقبلنا، تطوير التعليم عملية مستمرة، الانفتاح المعرفى والمناهج الدراسية، أدوار المعلم وعوائد التعليم. وفى كلٍّ منها نجد موقع العملية التعليمية، والمعلم والطالب والمناهج، وتحرير طاقات المتعلم وأنسنة الإنسان، إلى جانب آليات العملية من تدريس وتقويم وتوظيف للوسائط التكنولوجية المتقدمة وبيئة التعلم الثرية.

ويتميز الكتاب فى إحاطته باستعراض مختلف المفاهيم الجديدة فى مواصفات التعليم وعملياته مما أشاعته تيارات العولمة وسوقها وضغوطها التنافسية، وما تتطلبه الرؤية المستقبلية للتعليم العربى ليرتقى إلى مستوى المؤسسات التعليمية العالمية. كما يشير إلى ما تتعرض له المنظومة التعليمية من ضغوط خارجية أكثر منها داخلية، وما يقتضيه ذلك من تكيف أو تكييف أو مقاومة لتوجهاتها.

ومن بين تلك المفاهيم الجديدة التى يطرحها الكتاب ـ مما يصعب حصرها ـ نذكر على التحديد قضايا الجودة الشاملة، ومعاييرها، ونظم الاعتماد، والانتقال من أسلوب التلقين فى التعليم إلى أسلوب التعلم من خلال مختلف المصادر، وأنواع التفكير، وأدوار المعلم فى تشكيل الوعى، واحتياجات تعليم ذوى الحاجات الخاصة، إلى ما هو غير ذلك مما ينتسب إلى الجديد فى عالم المعرفة أو الإدارة أو التخطيط الاستراتيجى لتعليم المستقبل.

ولعله من الضرورى هنا الإشارة إلى أن كثيرا من المفاهيم والآليات التعليمية الجديدة جاءت فى معرض الحوار والجدل من حيث تحليل مكوناتها والسباقات التى طبقت فيها والمتسمة بنظم التصنيع فى المجتمعات الرأسمالية، هذا إلى جانب واقع الظروف والإمكانيات الحقيقية والشروط اللازمة لتوظيفها فى أوضاع مجتمعاتنا ومنظوماتنا التعليمية.

وفى حوارى الذاتى مع بعض هذه المفاهيم أشعر بأن معظمها قد ألقت به رياح العولمة على أرض واقعنا ونحن نسعى فى تطوير نظمنا التعليمية. وتلقفناها، كما تلقفنا غيرها من قبل، وأخذنا نرددها على أنها المنقذ من ركود أوضاعنا التعليمية. وتكاثرت حولها الدراسات والأبحاث، كما أنها قدر مقدور، وأنها هى قبلة التربية الجديدة التى سوف تصنع مستقبلنا. وعلينا أن نستمسك بالجودة الشاملة، والمعايير والمؤشرات، ونظام الاعتماد، واللامركزية، والتعليم الإلكترونى، والقدرة التنافسية، والإبداع، وحسابات المدخلات والعمليات والمخرجات، والتعليم باللغة الأجنبية لمختلف المواد العلمية.

وأعتقد، وقد أكون مخطئا، أن هذه الأفكار والمفاهيم، مع ما فيها من بريق وتحد وأشكال التجديد، إلا أنها وليدة ثقافة العولمة وتوجهات التنميط، وما صاحب العولمة من آليات السوق وعالم "البزنسة" وقيمه. وأدى ذلك إلى طغيان "تسليع" الحياة والثقافات والقيم الاجتماعية والأخلاقية. وقد أدى هذا الإطار إلى النظر إلى التعليم على أنه نوع من السلع أو المنتجات الصناعية يمكن تحديد مواصفاتها ومعاييرها ونواتجها والحكم بصلاحيتها، على طريقة معايير ISO.

وهذه النظرة السوقية السلعية للتعليم مغايرة تماما لتنمية البشر، حيث تتميز بعديد من التفاعلات الإنسانية والاجتماعية والثقافية فى تفاعل المعلم بالمتعلم، وبطبيعة الإنسان الفاعل القادر على تشكيل بيئته كما يتأثر بها، وعلى كونه يمشى على الأرض ويتطلع إلى عالم السماء فى علاقة مخلوق بخالق، ومن ثم يصبح من الغش أن نفرض عليه تكوين وتنمية قيم السلع والأشياء المادية. لذلك كله، ولغيره، تظل تلك المفاهيم والمعايير التى تسربت إلينا من تيارات العولمة ومجتمعاتها الصناعية جديرة بالمناقشة والحوار الجاد، دون ابتلاعها على أنها جديدة، أو كل جديد يستحق الابتلاع!!!

فى تقديمنا لهذا الكتاب الخصيب أن قارئه سوف يحيط إحاطة وافية بمعظم ما يدور فى العالم وفى وطننا العربى من قضايا إصلاح التعليم وتطويره، فكرا واستراتيجيات ومشروعات ونقلات نوعية تتطلب الجهد والجرأة فى إنجازها. وإذا كان المؤلف قد عرض لرؤية ما يسود من رؤى فى تلك القضايا، إلا أن التغيير الحقيقى يستلزم مزيدًا من معاناة الحوار مع الجديد، تعمقًا فى الأبعاد المتنوعة والإشكاليات التعليمية المعقدة فى تاريخها وحاضرها استشرافًا لحلولها المستقبلية.

وإذا شئنا اصطناع التقاسيم الأكاديمية المتعارف عليها، فإن هذا الكتاب المحيط يؤلف بين علوم أصول التربية والمناهج وطرق التدريس، مع قسط من علم النفس التعليمى، متميزًا بأسلوب يجمع بين الرصانة والرشاقة اللغوية.

نرحب بهذا الكتاب أهلاً فى هذه السلسلة، كما نؤيد دعوة المؤلف إلى الحوار الجاد، ومزيد من الحوار طولا وعرضا وعمقا، إذ إنه حسب عبارته فى عنوان مفتتح فصوله: (تعليمنا يصنع مستقبلنا).

مُقَدِّمَة

التعليم فى الدول المتقدمة والنامية على حدّ سواء له دور فاعل فى صياغة أوضاع الدولة وتشكيل أبنائها وبناتها فكرا ووجدانا وسلوكا؛ أى أن التعليم يتم توظيفه اجتماعيّا، وتتولى الدولة توجيه فلسفته وأهدافه ومضامينه وآلياته كى تشكل نوعية جديدة من المواطنين تمتلك المهارات والقدرات للتفاعل مع الأوضاع القائمة سعياً نحو مستقبل منشود، وهنا يتطلب التعليم وفاقًا مجتمعيّا عامّا وحوارات فكرية تحتشد لها كل فئات ومؤسسات الدولة من المهمومين والمهتمين بالتعليم، وتتولد المقالات والمقولات فى عوالم الصفحة المطبوعة والمسموعة والمرئية إعلاميّا أو بحثيّا، أو من خلال الندوات والمؤتمرات، لنحصل على زخم فكرى يتجاوز الوضع القائم إلى مستقبل قادم للوطن والمواطن.

وفى هذا الإطار تأتى فصول هذا الكتاب لتشكل أعمدة أربعة لتعليم جديد فى وطننا العربى الكبير.

أول هذه الأعمدة أن تعليمنا يصنع مستقبلنا من خلال أن الحوار مدخل لإصلاح التعليم، وأن التعليم الحديث محوره المستقبل، وأننا فى حاجة إلى ثقافة جديدة للتعليم، وأن تعليمنا يتطلب آلية لضمان الجودة والاعتماد، وأن تعليم الطلاب غير العاديين مطلب سياسى واجتماعى واقتصادى، وأن هناك مفاهيم جديدة لابد من تبنيها لتفعيل الرؤى المستقبلية للتعليم.

وثانى هذه الأعمدة اللازم للحوار حول التعليم يقوم على فكر تصميم المنظومة، والذى يبدأ من المستقبل، وينطوى على مسائل عدة، أهمها: الوفاق المجتمعى حول

غايات التعليم وفلسفته ومخصصاته البشرية والمادية، واقتحام عصر التكنولوجيا، والمعايير القومية اللازمة لوضع التعليم القومى فى إطار المنافسة العالمية، وتحديد معالم الطريق فى مسيرة التعليم الحديث، ومواصفات المنتج التعليمى، وكيفية تنشيط عناصر القوة فى التعليم على المستوى القومى.

وثالث هذه الأعمدة علاقة الانفتاح المعرفى بالمناهج الدراسية، من حيث دور المناهج المنشودة لأنسنة الإنسان، والمعلم التقدمى فى عصر المعرفة، والتقويم البديل كهدف تربوى، وعلاقة التدريس الجيد بالذكاء الإنسانى، وتوظيف ملفات الإنجاز للتدريس والتقويم معا، ثم رؤى نقدية للمناهج الدراسية فى عالمنا العربى الكبير.

ورابع هذه الأعمدة إطار وأدوار المعلم وعوائد التعليم، من حيث مسئوليات المعلم فى مجتمع الغد، وأدوار المعلم الحديث فى تحريك وتحرير طاقات الإنسان العربى، وقدرته على تشكيل الوعى، ومشاركاته فى إصلاح التعليم المعاصر، وترشيد عطاء المعلمين العرب وجهودهم فى تشكيل عالم عربى متجدد، وتكوين معلم لذوى الاحتياجات الخاصة.

إنه نضال اجتماعى نشارك فيه، مؤمنين بالله وبقدرات وإمكانات أمتنا العربية، من أجل غدٍ أكثر إشراقا وتقدما..

وبالله التوفيـق

المؤلف